النبأ العظيم

نظرات جديدة في القرآن الكريم

تأليف

د. محمد عبد الله دراز

(١٣٧٧هـ)

اعتنى به

عمرو الشرقاوي

النبأ العظيم
نظرات جديدة في القرآن الكريم

الفهرس الإجمالي

الموضوع	الصفحة
مقدمة المعتني	٧
المقدمة الأولىٰ: تدعيم مقاصد كتاب «النبأ العظيم»	١٣
المقدمة الثانية: موقف المسلمين من القرآن، وسلامة النص القرآني من التحريف	٣٠
مبررات الإيمان بسلامة النص القرآني	٤٦
المقدمة الثالثة: مدخل إلىٰ القرآن الكريم	٦١
مقدمة المؤلف للطبعة الثانية	٧٨
مقدمة المؤلف للطبعة الأولىٰ	٨٠
البحث الأول: في تحديد معنىٰ القرآن، والفرق بينه وبين الحديث القدسي والنبوي	٨٢
تعريف القرآن	٨٥
البحث الثاني: في بيان مصدر القرآن، وإثبات أنه من عند الله بلفظه ومعناه	٨٩
إقرار النبي ﷺ بأن القرآن ليس من عنده من أقوىٰ الأدلة علىٰ أن القرآن كلام الله	٩٠
أحوال النبي ﷺ دليل علىٰ صدقه في قوله: القرآن كلام الله	٩١
احتياج النبي ﷺ إلىٰ الوحي، وتأخره، دليل علىٰ كون القرآن من عند الله	٩٣
دلالة آيات العتاب علىٰ مصدرية القرآن	٩٦
توقف الرسول ﷺ في بيان القرآن، ودلالته علىٰ المصدرية	٩٩
حالته ﷺ عند نزول الوحي، ودلالتها علىٰ مصدرية القرآن	١٠٥
سيرته ﷺ العامة، ودلالتها علىٰ أن القرآن من عند الله	١٠٦
هل يمكن أن يكون القرآن إيحاءً ذاتيًا من نفس محمد؟	١٠٩
المعاني النقلية في القرآن لا تستنبط بالعقل، ولا تدرك بالوجدان	١١٠
الأخبار الغيبية في القرآن، ودلالتها علىٰ أن القرآن من الله	١١١
التحدي القرآني، ودلالته علىٰ المصدرية	١١٦

الموضوع	الصفحة

هل أُخذ القرآن عن مُعلِّم؟ ١٢٧
رد القرآن علىٰ شبهة وجود معلم للرسول ١٣٣
ظاهرة الوحي، ودلالتها علىٰ المصدرية ١٣٨
خلاصة البحث في الحجج الخارجية الدالة علىٰ مصدرية القرآن ١٤٤
القرآن معجزة لغوية ١٤٨
دراسة في الأسلوب القرآني ١٦٨
بيان بعض الخصائص البيانية للقرآن الكريم ١٧٤
التأصيل لعلم الوحدة الموضوعية عند المؤلف ٢٠٦
النظم القرآني ٢١٦
مثال علىٰ الوحدة الموضوعية في السور القرآنية - سورة البقرة ٢١٩
السياسة الرشيدة في دراسة النسق القرآني ٢٢٠

مقدمة المعتني

الحمد لله حق حمده، والصلاة والسلام علىٰ نبيه وعبده، وآله وصحبه من بعده، **وبعد:**

فإن الله تعالىٰ أنزل القرآن ليكون للعالمين نذيرًا، وجعله قيمًا لا عوج له، وجعل فيه آيته الباقية، ومعجزته الخالدة إلىٰ أن يأذن الله برفعه من الصدور والسطور.

وقد أقام الله فيه من البينات والدلائل علىٰ صدقه ما يدركه كل طالب للحق والهدىٰ.

ومع ذلك، فإن بعض من طُبع علىٰ قلبه، ورام غير الهدىٰ = حاول التشغيب علىٰ القرآن، وهي دعوة قديمة، فقد قال بعض المشركين عنه: إن هذا إلا سحر يؤثر، وقالوا: أساطير الأولين اكتتبها فهي تملىٰ بكرة وأصيلًا!

وبعد هذا كله؛ خضع الجميع لسطوة الكتاب، وتأثيره، وأقر له القاصي والداني بعلوه ومكانته، ودانت العرب لبيانه وفصاحته.

وبعد سنين = ظهرت الفرق، وتأولت الكتاب، ولوت أعناق النص ليوافق الهوىٰ والرأي، وصار الانطلاق من الرأي للنص كمحاولة لفهم النص وفقًا للمعتقد.

وكان من حفظ الله للقرآن، أن جعل له من علماء الأمة من يحفظ ألفاظه ومعانيه، وينفي عنه انتحال المبطلين، وتأويل الغالين، وتحريف المنحرفين.

وفي العصر الحاضر، ظهرت التأويلية المعاصرة، وظهرت النظريات الحداثية وما بعدها لتعمل في حقل النص الديني، وتوجهت هي الأخرىٰ لفهم القرآن

المجيد، وصاحبها موجة من الشبهات المتعلقة بالقرآن، والتي يمكن أن نصنفها بحسب العرض الذي أوجزناه إلىٰ قسمين رئيسين، فنقول:

أنواع الشبهات المتعلقة بالقرآن

إن الشبهات المتعلقة بالقرآن، تنقسم إلىٰ قسمين رئيسين:

الأول: الشبهات المتعلقة بالمصدرية والتاريخ.

وهذه الشبهات هي التي تتعلق بالقرآن، من حيث مصدرية الكتاب، وتتعلق به من حيث تاريخه، ويدخل فيها الشبهات المتعلقة: بجمع القرآن، والشبهات المتعلقة بالتحريف في النص القرآني من حيث الزيادة أو النقصان، والشبهات المتعلقة بالقراءات القرآنية.

الثاني: الشبهات المتعلقة بالمعاني.

والشبهات المتعلقة بالمعاني تتفرع إلىٰ قسمين هي الأخرىٰ -بحسب القدم والجدة-:

أولًا: العقائدية وأثرها في تفسير القرآن الكريم.

ثانيًا: التأويلية المعاصرة.

ومن الكتب التي عالجت موضوع «**مصدرية القرآن**» كتاب العالم الجليل الفذ، الأستاذ الدكتور محمد ابن الشيخ العالم الأصولي عبد الله دراز، فقد جاء هذا الكتاب كمفخرة من مفاخر التأليف المعاصر، جاء كنسق فريد في المؤلفات التي أثرت الدراسات القرآنية.

تلخيص مركز للكتاب

عالج الشيخ في هذا الكتاب الحجج التي يُعتمد عليها في معالجة هذا الموضوع الخطير، وقد اعتمدت الحجج التي ذكرها المؤلف ﷺ علىٰ نقاط يحسن أن نبرزها في هذا التقديم.

- فقد ارتكز المؤلف كثيرًا علىٰ مسألة صدق النبي ﷺ، في تبليغه عن الله تعالىٰ، وحشد الأدلة علىٰ هذا الصدق من سيرته العامة ﷺ، وكريم خصاله وشمائله.

- واعتمد علىٰ إثبات مصدرية القرآن -كذلك- بما فيه من الآيات الدالة علىٰ صدقه، كإخباره بالغيوب الماضية والمستقبلة، وتحقق الغيوب المستقبلية التي أخبر بها.

- ومن آيات صدق القرآن، وعلامات صحته، أن الله تحدىٰ به العرب، أفصح الناس بيانًا، وأملكهم لناصية الكلام، تحداهم الله تعالىٰ بأن يأتوا بمثل القرآن، وتدرج التحدي إلىٰ أن وصل لسورة واحدة من مثل القرآن، وقد وقفوا من ذلك موقف العاجز، فلإن عجز العرب، فلَعْجزُ غيرهم من باب أولىٰ وأحرىٰ، ولقد استمر العجز إلىٰ زمان الناس هذا، وإلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها.

- ومن دلائل الصدق أن القرآن كله نسق واحد، لا تجد تنافرًا بين سورة وأخرىٰ، ولا تجد تنافرًا بين الآيات في السورة الواحدة، مع أن القرآن نزل في أوقات متفرقة، وأحوال وأزمنة متباينة، لكنه بناء واحد، تتجلىٰ عظمته كل حين.

ومن الأدلة التي اعتنىٰ الشيخ بإثباتها:

- دليل الإقرار، لقد أثبت القرآن نفسه أن عمل النبي ﷺ كان يتمثل في الوعي والحفظ، ثم الحكاية والتبليغ، ثم البيان والتفسير، ثم التطبيق والتنفيذ.

أما ابتكار معانيه وصياغة مبانيه فما هو منها بسبيل، وليس له من أمرهما شيء، إن هو إلا وحي يوحىٰ.

- ولو كان القرآن من عنده، فلم عجز العرب عن معارضته؟!

- ومن أعظم الأدلة علىٰ ما سبق: ما نزل من آيات العتاب، ومخالفة القرآن للنبي ﷺ في عدة أمور، ونزول الوحي بها، وتأخر الوحي عنه في أوقات احتياجه إليه، كحادثة الإفك، وصلح الحديبية، وغير ذلك.

- كما أن النبي ﷺ لم ينسب كل أقواله إلىٰ القرآن، بل إننا نعلم الفرق بين القرآن، وبين الأحاديث القدسية والنبوية، فلو كان القرآن مختلقًا من عنده، فلم لم ينسب جميعها إليه؟!

- وشدد الشيخ أن من غير الممكن أن يكون القرآن مأخوذًا من أهل الكتاب، فإن من المعلوم أنه لم يلتق ورقة، ولا بحيرىٰ إلا ساعات معدودة لا تمكنه من أخذ كل هذا العلم عنهم، ولو افترضنا جدلًا أنه التقىٰ بهم، أفلم يكن من الأحرىٰ أن يدَّعوا هم لأنفسهم ما ادَّعاه محمد إن كان كاذبًا؟!

أما أخذه عن أهل الكتاب فمما لا يجوز في العقول، إذ كيف يأخذ عنهم، وقد أخبر عن تحريفهم، وكتمانهم للحق، وقد سفه علمائهم، وأزرىٰ بهم، وأظهر جهلهم وعجزهم.

ثم إن في القرآن ما لا يوجد في كتب أهل الكتاب، كقصة هود وشعيب عليهما السلام، فمن أين أتىٰ بها؟!

بيان العمل في الكتاب

هذه مجمل الحجج التي ذكرها الشيخ في الكتاب، وقد ذكرناها بأوضح من هذا وأتم في التدعيم الذي قدمناه بين يدي الكتاب.

وفي هذا التدعيم سنقدم عرضًا لمقاصد كتاب النبأ العظيم، للشيخ العلامة محمد عبد الله دراز رَحِمَهُ اللَّهُ، وسنقوم بتدعيم هذه الحجج التي ذكرها، بتيسير عرضها، بما يناسب شريحة كبيرة من القراء الكرام، ونضيف بعض الحجج التي من شأنها أن تضيف اليقين علىٰ هذه الحقيقة العظيمة، وهي كون القرآن كلام الله، الذي أنزله علىٰ عبده محمد ليكون للعالمين نذيرًا.

وسنتبع ذلك ببيان موقف الفرق الإسلامية من القرآن العظيم، ونذكر بعض الأدلة العقلية علىٰ نفي التحريف عن القرآن المجيد، لنختم هذه المقدمات بحديث عن اتفاق الأمة الإسلامية علىٰ عظمة هذا الكتاب، ونذكر وجوهًا من عنايتهم بكتاب ربهم الذي أنزله لهدايتهم نورًا ورحمة لقوم يعقلون.

ونختم بتلخيص لكتاب «مدخل إلىٰ القرآن» للمؤلف، لأنه مترابط مع كتابنا، ومتشابه معه في الطرح.

ولقد تلخص عملي في الكتاب في الأمور التالية:

١- قمت بتصحيح الكتاب علىٰ أصح نسخه المطبوعة، واعتمد علىٰ نسخة «دار الثقافة» كأصل، لأنها أقل النسخ من جهة الأخطاء، ولأنها خلت من تدخل المحققين في النص كما حصل في سائر النسخ غيرها.

وصححت بعض النصوص من نسخة «دار القلم» بعناية الشيخ الفاضل: مصطفىٰ فضلية، وهو صاحب اعتناء كبير بكتب الشيخ دراز، وسيرته، ودراساته . . وغير ذلك مما يتصل بالشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو صاحب فضل كبير في تعريف الدارسين بتراث الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وعلىٰ نسخة «دار طيبة» بتصحيح الشيخ: عبد الحميد الدخاخيني، وهي النسخة المتداولة من فترة بين طلبة العلم، وبها يتواصون.

وقد اعتور هاتين النسختين الأخيرتين ما لا بد منه في أي عمل بشري، فقد تكررت بعض النصوص، وسقط البعض الآخر، وكان من أشد ما وقع فيها أن المحققين -جزاهما الله خيرًا- تدخلا في نص الكتاب، وقد خلت نسختنا من كثير من هذا -بحمد الله-[1].

٢- قدمت للكتاب بثلاث مقدمات:

الأولىٰ: في تدعيم مقاصد الكتاب.

الثانية: في بيان إجماع الفرق الإسلامية علىٰ نفي التحريف عن القرآن، ومبررات الإيمان بسلامة النص القرآن، وذكر نماذج من عناية الأمة بالقرآن الكريم.

الثالثة: في تلخيص كتاب: «مدخل إلىٰ القرآن»[2]، للدكتور محمد دراز رحمه الله، وهو كالمتمم لمقاصد هذا الكتاب، وهو مع أهميته، مغفول عنه عند عموم طلبة العلم، وهو حري بالدراسة والنظر، واستخراج آراء الشيخ محمد دراز المتعلقة بالقرآن وعلومه، والتي بثها في هذا الكتاب المبارك، وأصله إحدىٰ الرسائل التي قدمها الشيخ بالفرنسية، وترجمت للعربية.

٣- أعدت تخريج أحاديث الكتاب كاملةً، فالتخريج في الكتاب بأكمله لي، وقد تُرك تخريج بعض الأحاديث في طبعات الكتاب المختلفة.

٤- شرحت ما يمكن أن يَشْكُل من كلام الشيخ رحمه الله.

٥- أضفت بهامش الكتاب عبارات توضيحية لفقرات الكتاب، ولم أتدخل في صلب الكتاب بشيء.

---

(١) لن أعتني بإثبات الفروق بين نسختنا، والنسخ السابقة، فقد نفع الله بها، ولا يزال الانتفاع بها، لكني ساذكر بعض النماذج اليسيرة حتىٰ لا يكون الكلام مرسلًا بلا دليل أو برهان.

(٢) عقدت العزم أن اكتب عن نظرية الوحدة الموضوعية عند الشيخ محمد دراز، وأن أجعلها كالمقدمة الرابعة، لكني وجدت بحثًا للدكتوراه مقدم من الدكتور محي الدين بن عمار، بعنوان: «جهود محمد عبد الله دراز في التفسير الموضوعي .. دراسة وتحليل»، وهو متاح علىٰ الشبكة، فلينظر فيه من أراد التوسع في دراسة هذه المسألة عند الشيخ رحمه الله.

وفي ختام هذا التقديم، أود أن أهدي هذا العمل لأول من سمعت منه اسم الشيخ دراز، وتعرفت منه علىٰ هذا الكتاب العظيم، لقد تعرفت علىٰ الشيخ دراز أول ما تعرفت عبر كتابه «المختار من كنوز السنة»، ثم علىٰ كتابه الذي أشرف بالتقديم له، والعناية به «النبأ العظيم» من شيخي، والذي هو مني بمقام أبي: **أبي عبد الله أحمد بن أحمد العيسوي**، حفظه الله، وأتم نعمه عليه وأرضاه.

وأسأل الله أن يتقبله بقبول حسن، وأن ينفع به طلبة العلم وأهله .. وإني لأرجو ألا يبخل علي أحدٌ طالع هفوة في هذا الكتاب -مني-، أو شيئًا يحسن إيراده مكان شيء، أن يعجل بإخباري، وإني له لشاكر، ولنصحه -إن شاء الله- لممتثل .. والحمد لله رب العالمين.

وكتبه

عمرو صبحي علي الشرقاوي

amr.alsharqawi@gmail.com

المقدمة الأولى
تدعيم مقاصد كتاب «النبأ العظيم»

القرآن:

المقصود بالقرآن في كلامنا، هو: كتاب الله، المنزل علىٰ محمد ﷺ، المحفوظ بين الدفتين، المنقول إلينا جيلًا بعد جيل، والمتحدىٰ بأقصر سورة منه.

ولقد جاء في القرآن ذاته تحديد مصدره، وأنه كلام الله جاء به محمد بن عبد الله ﷺ، وليس لمحمد عليه الصلاة والسلام في القرآن سوىٰ:

(١) الوعي والحفظ، ثم (٢) الحكاية والتبليغ، ثم (٣) البيان والتفسير، ثم (٤) التطبيق والتنفيذ.

مجمل الحجج في الكتاب

ويمكننا أن نقسم الحجج علىٰ مصدرية القرآن إلىٰ قسمين:

١- الحجج الخارجية.

ونعني بها: البحث عن القرآن من خارجه، لا من جوهره.

٢- الحجج الداخلية.

ونعني بها: البحث عن القرآن في جوهره.

[القسم الأول: الحجج الخارجية]
الحجة الأول: إقرار محمد ﷺ أن القرآن ليس من عنده

إقرار محمد ﷺ أن القرآن ليس من عنده

إن المصلحة تقتضي أن يدعي محمد ﷺ كون القرآن من عند نفسه، وبذلك تثبت زعامته، وتروج حجته عند كثير من الناس، إذ إنهم أقروا جميعًا علىٰ علو هذا البيان علىٰ بيانهم.

ومع ذلك فإن محمدًا ﷺ قد أقر أن القرآن ليس من كلامه، وأنه مبلغ له فحسب.

قد يقول قائل:

إن محمدًا لم ينسب الكلام للإله إلا ليستفيد من ذلك جلب الناس إلىٰ طاعته، وبسط سلطانه عليهم.

فنقول:

إن هذا الكلام فاسد من جهة ذاته، وأساسه.

ففساده من جهة ذاته: أن القرآن نفسه أوجب علىٰ الناس طاعة محمد ﷺ، وجعل طاعته من طاعة الله تعالىٰ.

وفساده من جهة أساسه: لأنه مبني علىٰ افتراض باطل، هو أن يكون محمد صلىٰ الله عليه قد سوغ لنفسه أن يصل إلىٰ مقصده، ولو بالكذب والتمويه.

وهذا باطل؛ لأن سيرة محمد ﷺ، وأحواله تأبىٰ ذلك.

فإن صفاته وشمائله قبل النبوة وبعدها، تأبىٰ أن يكون كاذبًا، فقد كان أعداؤه قبل أصحابه يشهدون له بالصدق، والأمانة، ولم يقل أحد منهم قط: إنه كاذب.

ثم إن في تأخر نزول الوحي عليه في الحوادث المهمة، والتي تتعلق بشأنه الخاص، كحادثة الإفك، والآيات التي تشتمل علىٰ عتابه عليه الصلاة والسلام، وتوقفه في تأويل بعض الآيات حتىٰ ينزل الوحي، وسائر أموره العامة = كل ذلك دليل علىٰ بطلان أن تكون هذه الشخصية من الشخصيات التي تتوصل إلىٰ مرادها بالكذب والتمويه.

إن صاحب هذا الخلق العظيم وصاحب تلك المواقف المتواضعة بإزاء القرآن، ما كان ينبغي لأحد أن يمتري في صدقه حينما أعلن عن نفسه أنه ليس هو واضع ذلك الكتاب، وأن منزلته منه منزلة المتعلم المستفيد، بل كان يجب أن نسجل من هذا الاعتراف البريء دليلًا آخر علىٰ صراحته وتواضعه.

الحجة الثانية: في القرآن ما لا يستنبط

بالعقل ولا بالتفكير، وفيه ما لا يدرك بالوجدان ولا بالشعور

في القرآن ما لا يستنبط بالعقل ولا بالتفكير، وفيه ما لا يدرك بالوجدان ولا بالشعور

قد يقول قائل: إن الفطرة السليمة، والبصيرة النافذة لمحمد ﷺ هي التي أهلته لإنتاج هذا القرآن.

والجواب:

أن في القرآن جانب كبير من المعاني النقلية البحتة التي لا مجال للذكاء والاستنباط فيها.

١- الوقائع التاريخية لا مدخل للعقل والذكاء فيها.

من المعلوم أن الوقائع التاريخية لا يمكن وضعها بإعمال الفكر والفراسة، فالعلم بأحوال الأمم السابقة، وما حصل لهم، وبمجمل ما جرىٰ من حوادث في تلك الأزمان، بل وبمفصل ما جرىٰ أيضًا مع ذكر لأرقام دقيقة = كل ذلك لا يمكن أن يكون من ذكاء محمد ﷺ، بل هو وحي أوحاه الله إليه.

ولقد كان ملاحدة الجاهلية أصدق تعليلًا لهذه الظاهرة من ملاحدة العصر، إذ قالوا عن هذه الأخبار: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥].

وقد أجاب القرآن عنهم إجابة بليغة، فقال: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦].

٢- الحقائق الدينية الغيبية لا مدخل للعقل فيها.

إن القرآن قد فصل ذكر حدود الإيمان، ووصف الجنة ونعيمها، والنار وعذابها، ووصف عوالم أخرىٰ كالملائكة والجن، بل ذكر بعض الأرقام في ذلك المجال؛ كعدد الملائكة الموكلة بالنار.

أبعد هذا شك أن يكون القرآن قد افتُري من دون الله، إن القرآن تصديق الذي بين يديه، وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين.

٣- أنباء المستقبل الجازمة ودلالتها علىٰ مصدرية القرآن.

لقد جاء القرآن ببيان أن الدين قد كتب الله له البقاء والخلود، وأن هذا القرآن سيعجز العالم أجمع، وتحدىٰ القرآن العرب كلهم بهذا، وثبت عجزهم، فمن أين لمحمد ﷺ هذا الغيب، ومن أين له الجزم به؟

ومن الغيوب التي أخبر بها، والتي تكفي في صدقه، وصدق ما جاء به، ما أخبر عنه القرآن في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧]، فأي ضمان هذا؟

وليس هذا فحسب، وإنما وقع هذا موقعه، فترك النبي ﷺ اتخاذ الحراس بعد هذه الآية، وثبتت هذه العصمة له في غير موطن[١].

إنه لا بد أن يكون قد استقىٰ هذه الأنباء من مصدر علمي وثيق، واعتمد فيها علىٰ اطلاع واسع ودرس دقيق.

ولا يمكن أن تكون تلك الأنباء كلها وليدة عقله وثمرة ذكائه وعبقريته.

---

(١) انظر: صحيح البخاري: (٤١٣٦)، والترمذي: (٣٠٤٦).

الحجة الثالثة: أمية النبي ﷺ،

وعدم أخذه عن معلم من البشر، دليل على كون القرآن من عند الله

أمية النبي ﷺ، وعدم أخذه عن معلم من البشر، دليل على كون القرآن من عند الله

لم يكن النبي ﷺ ممن يرجع بنفسه لكتب العلم، ودواوينه، لأنه باعتراف الخصوم ولد أميًا، وفي القرآن نفسه: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

وليست القراءة والكتابة قيمة ذاتية، وإنما قيمة القراءة والكتابة قيمة غائية تهدف إلىٰ تحصيل العلم، وهو حاصل لمحمد ﷺ -عندنا- بالوحي.

ومع دلالة الآية السابقة علىٰ هذه المسألة، إلا أن مما يؤكد تلك القضية أمور، منها:

١- اتخاذه كتابًا للوحي من خاصة صحبه.

٢- أنه لم يعرف موقع اسمه المكتوب في صلح الحديبية.

٣- الشهرة المستفيضة بعدم معرفته للكتابة.

وعلىٰ أية حال، فإن من المتفق عليه؛ كونه ﷺ لم يكن يمارس القراءة والكتابة قبل بعثته.

ولم يكن له معلم من الأميين من قومه، وهذا لا شبهة فيه لأحد، فإن هؤلاء فقدوا أساس العلم في أنفسهم حتىٰ اشتق لهم من الجهل اسم!

وليس له معلم من غيرهم، ولا يمكن لأحد أن يدعي أن لمحمد معلمًا من البشر.

فأما من ادعىٰ أنه أخذ هذا العلم عن بحيرىٰ الراهب، أو ورقة بن نوفل، فقد ابتعد عن الصواب، وخالف الحق.

فإن لقائه بحيرىٰ الراهب أو ورقة بن نوفل لم يكن بمنأىٰ عن الناس، فقد شاهده عمه أبو طالب، وزوجه خديجة، ولم يكن لقائه بهما إلا يسيرًا، فماذا حدثنا التاريخ عن هذا اللقاء، وما الذي يمكن أن يكون قد تحمَّله في هذه الدقائق؟!

أيكون هذا العلم أجمع؟!!

ثم إن خصومه الألداء لم يستخدموا هذا السلاح، ولا شهروه في وجه محمد، وقد كان هذا السلاح أقرب إليهم وأمضىٰ من كل ما لجئوا إليه.

علىٰ أن التاريخ قد أخبرنا أن هذين الرجلين، استبشرا بلقيا محمد ﷺ، وتوقع له أحدهما شأن عظيم، وتمنىٰ الآخر أن يشهد بعثته فيكون من أنصاره!

- دعوىٰ الأخذ عن اليهود والنصارىٰ:

إن من المستحيل أن يكون القرآن قد أخذ عن اليهود والنصارىٰ، ولينظر قائل تلك المقالة إلىٰ حديث القرآن عن أهل الكتاب، وذكره لهم، وكيف يصور القرآن علومهم بأنها الجهالات، وعقائدهم بأنها الخرافات، وأعمالهم بأنها الجرائم والمنكرات.

ولقد كان القرآن بمثابة الأستاذ الذي يصحح لأهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ أغلاطهم، وينعي عليهم سوء حالهم.

ويضاف لذلك كله ما كان عليه أهل الكتاب من كتمان للحق، وتحريف للكلم عن مواضعه.

وأما الراسخون في العلم من أهل الكتاب فقد آمنوا بالقرآن.

- دعوىٰ أهل الشرك بأن لمحمد معلم من البشر!

لما ضاقت بالمشركين دائرة الجد، ما وسعهم إلا فضاء الهزل، فادعوا أن محمدًا تعلم من غلام في مكة، وقد كان هذا الغلام نصرانيًا تعرفه الحوانيت والأسواق، أعجمي اللسان مع ذلك؟!

ولنا أن نقول: ما الذي منع قومه -إن كان قولهم الحق- من أن يأخذوا كما أخذ محمد، والغلام بين ظهرانيهم، وبذلك يستريحون من عنائهم بمحمد،

ويداوونه من جنس دائه، بل ما الذي منع الغلام نفسه من أن يتبوأ هذه المنزلة، أو يتولىٰ بنفسه تلك القيادة؟

إن ذلك لا يفسر إلا بشيء واحد؛ أنه من تخرصات الجاهليين، إذ لم يجدوا ما يمكن أن يدحض الحجة الساطعة إلا بمثل هذا الهزل من القول.

- ومما سبق نصل إلىٰ أنه لا يوجد للقرآن مصدر إنساني، لا في نفس صاحبه، ولا عند أحد من البشر، وأن كل من حاول أن يجعل القرآن (عملًا إنسانيًا) أعياه أمره.